المحاضرة الثالثة : النقد الثقافي

تهدف هذه المحاضرة إلى إقرار حقيقة الحضور القوي، للنقد الثقافي في العالم العربي، وخاصة على يدي الناقد الكبير "عبد الله الغذامي"، الذي جعل النظرية تترك أثرا في التعامل مع الخطابات المختلفة ، ضمن مرجعية(المابعد حداثية)، عندما أعلن عن " موت النقد الأدبي"، وإعلان النقد الثقافي بديلا منهجيا عنه، من خلال إيضاح بعض المفاهيم والاسس التي يمكن أن تكون مدخلا إلى النقد الثقافي، وذلك بوضعه جملة من الأسئلة التي يجيب عنه في كتاباته المختلفة:

لماذا النقد الثقافي؟-

هل هو بديل فعلي عن النقد الأدبي؟-

هل الشعرنة لا السياسة أو السيسنة هي النسق المهيمن؟-

هل هناك ما يعيب النقد الأدبي لكي نبحث له عن بديل؟-

هل إن تسمية النقد الثقافي مجرد تسمية لوظيفة قديمة ؟

يجيب "الغذامي "عنها، فيقول :مازلت أسمع هذه الأسئلة من أناس، هم من أهل الصنعة، والمهنة، يقصد بها مهنة أهل النقد، مما يجعلها أسئلة مصيرية بها تتقرر وجاهة المشروع الثقافي وتحديد وظيفته

إن هذه الرؤية لدى الغذامي تقوم على تحويل الأداة النقدية لتكون قادرة على استيعاب المهمة الثقافية التي سيقوم بها، وهي " إعادة ترتيب عناصر العملية الأدبية،وتجديد وإضافة إذا لزم الأمر، وهنا يقترح الغذامي أن تشمل عناصر الرسالة الأدبية، المجاز، والتورية الثقافية، ونوع الدلالة، والجملة النوعية، والمؤلف المزدوج "يقف النقد الثقافي على أرض مفتوحة ومكشوفة، على الرغم من تعدد المناهج والاتجاهات والمدارس التي تعنى بالنصوص منذ زمن بعيد، وهذا الأمر يشكل في حد ذاته إشكالية قد تصل إلى حد الغموض، لأن هناك من يرى أن هذا النقد يميل إلى التكلف، ومن يرى أنه يهدف إلى البروز على حساب النقد الأدبي .فالنقد الثقافي فيما يعرفه عبد الله الغذامي، فرع من فروع النقد النصي وهذا يجعل منه من النقد الثقافي أحد فروع علم اللغة أو أحد حقول الألسنية، لأنه معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بتجلياته كلها وأنماطه وصيغه المتجددة.

مما يعني أن النقد الثقافي، نفي للنقد الأدبي وإلغاء له.ويمكن أن نشير منذ البداية إلى معرفة الفرق بين القراءة الأدبية والقراءة الثقافية من وجهة نظر محمد عبد المطلب، وفق ما يأتي:

القراءة الأدبية	**القراءة الثقافية**
النقد الأدبي	النقد الثقافي
يعتمد الكفاءة اللغوية	يعتمد الكفاءة الثقافية
جمالية	تتجاوز أفق الجمال
نصية	تكاملية
يتحدد بمنهج محدد ومدرسة محددة	مفتوح على مناهج متعددة
قار إلى حد ما	يتبدل بحسب الناقد ومرجعياته وطبيعة النص وقضاياه.

إن هناك اختلافا بين القراءة الجمالية التي تنتسب إلى النقد الأدبي، وبين القراءة الثقافية التي تستند إلى رد النص الأدبي إلى الأنساق الثقافية، التي تتدخل في إنتاج الدلالة .فالنقد الثقافي يشكل صورة جديدة تختلف عن الصورة التي يشكلها النقد الأدبي، وذلك بربط النص الأدبي بالمحيط الثقافي، ومعنى ذلك أن يتحول النص الأدبي إلى نص مفتوح على التأويل، معتمدا على مناهج متعددة، كما يمكن أن تتغير معطيات تحليل النص الأدبي وتتباين بحسب النقاد، الذين يمكن أن يقدموا قراءات شتى حسب ثقافاتهم وتوجهاتهم،بالرجوع إلى طبيعة النص الأدبي ومايطرحه من قضايا مختلفة.

إن أول من استخدم مصطلح" النقد الثقافي "هو "فنسنت ليتش "الذي أراد به :الإشارة إلى نوع من النقد يتجاوز البنيوية ومابعدها، والحداثة ومابعدها، إلى نقد يستخدم السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والمؤسساتية، دون أن يتخلى عن مناهج النقد الأدبي.وهو يقوم على تجاوز الأدب الجمالي، والأدب الرسمي، متجها إلى أي نوع من أنواع الإنتاج الثقافي، وإلى أي مستوى من مستوياته، ومن ثم فهو نقد لا يغفل الأعمال الهامشية، التي تعرضت عبر التاريخ إلى إنكار قيمتها من طرف النقاد، بحجة أنها لا تخضع لشروط الذوق النقدي.

إن هذه المفارقة مابين النقد الأدبي والنقد الثقافي، قد أدى إلى ما يشبه الفصل الطبقي في التعامل مع المؤسسة الأدبية، وما هو من استهلاكات الجماهير المجتمعية، وبين ماهو نخبوي معزول، مما أدى إلى إغفال ما هو مؤثر وفاعل في المجتمع عند عموم الناس، وأصبح النقد منشغلا بالنقد النخبوي الذي يتعالى على ماله أهمية في المجتمع عند عموم الناس ، وقد أتاح ذلك مجالات أمكنت النقد الثقافي من التحرك فيها، وهي :

سؤال النسق وهو بديل عن سؤال النص .

سؤال المضمر وهو بديل عن سؤال الدال .

سؤال الاستهلاك الجماهيري وهو بديل عن سؤال النخبة المبدعة .

ويتوج ذلك سؤال عن حركة التأثير الحقيقية، التي مفادها :هل هي للنص الجمالي المؤسساتي، أم لنصوص أخرى لا تعتد بها المؤسسة ؟

فالنقد الثقافي يخالف تيارات النقد الأخرى في العودة إلى تأويل النصوص، ودراسة الخلفية التاريخية، ومعنى ذلك أن النقد الثقافي يصبح التي تدعو إلى نقد جديد يتجاوز البنيوية ويعبر منها إلى New hestoricismمتجاوبا مع التاريخانية الجديد الحدود بين التاريخ والفن والسياسة والأدب والاقتصاد.فأهداف النقد الثقافي تهدف إلى إلغاء الفارق بين ما هو أدبي وما هو غير أدبي .

النقد الثقافي يراجع جملة من الأفكار:

إن بعض الأفكار التي كانت أشبه ب "الأفكار المؤكدة، أو البدهية أو المسلمات"في النقد الأدبي، أصبحت مثار شك، ومن ذلك فكرة :المحاكاة والتخييل والرمز...وغيرها .لأن النقد الثقافي ينظر إليها على أنها تقوم على تحليل الظاهرة الأدبية المنسوب إلى النقد التقليدي القديم، الذي هو عاجز عن تحليل الظاهرة الثقافية بمفهومها الواسع، إذ إن النقد الثقافي يتعامل مع كل أنواع الخطاب التي لم يتصد لها النقد الأدبي، كما إنه يتعامل مع النصوص التراثية بإعادة قراءتها .إنها وظيفة النقد الثقافي من الناحية النقدية ومن الناحية الإجرائية ومن الناحية المعرفية.

يقول عبد الله الغذامي في هذا الصدد " :ليس للمنهجية الإجرائية من تبرير إلا إذا توفر شرطان، أن تفضي المنهجية إلى نتائج بحثية تختلف عن النتائج المعهودة في المنهجيات الأخرى، والآخر أن تكون هذه النتائج البحثية المعتمدة في تحققها على هذه الإجراءات المنهجية تحديدا، وإذا لم يتحقق هذان الشرطان فإن المنهجية المقترحة حينئذ ستكون مجرد لعبة رياضية ذهنية .

لقد أحدث النقد الثقافي فكرة جديدة، مفادها تأريخ النصوص وتنصيص التاريخ، أي أن تعامل النصوص كما يعامل التاريخ، أو الجمع بين البعدين الشكلي والتاريخي للنصوص .كما إن هناك من دعا إلى ما يسمى " النقد المدني"، الذي تحدث عنه" إدوارد سعيد "وأراد به نقدا يقع بين مسافتين :النقد التقليدي الذي يسمى" النقد المؤسساتي"، والثقافة التي تتحدى الفعل النقدي.

ويرى إدوارد سعيد أن على الناقد أن يحول التعارض بين النظام، الممثل في النقد التقليدي والثقافة إلى تجانس يخدم الممارسة النقدية عبر استعداد الناقد لمساءلة الخطاب النقدي ذاته، مع انفتاحه على النصوص والكتابات المهمشة وإحضارها إلى المتن الثقافي، وكسر الحدود القومية والعرقية لتحقيق خطاب عالمي إنسان .وفي الوقت نفسه صهر البعدين الجمالي والثقافي في بعد واحد معا، من حيث أن الثقافي ظرفي في حين أن الجمالي غير ظرفي .

إن النقد الثقافي بهذا المفهوم يتجرأ على الكثير من الفنون الأدبية، ويعيد النظر في الكثير مما كان متعارفا عليه بين النقاد، إلى درجة المسلمات كما أسلفنا ، وذلك على أساس علاقتها بالثقافة، بصرف

النظر عن رأي النقد الأدبي فيها.لأن هذا النقد بحسب النقد الثقافي يعبر عن وجهة نظر شبه رسميةأو مؤسساتية، تقوم على تقديس أنواع من الإنتاج الثقافي، وتهمل أنواعا أخرى.

إن النقد الثقافي يأتي ليسد حاجات معرفية ونقدية كثيرة، ظلت في طي الإهمال في النقد العربي القديم، ومن ذلك عدم اكتراث النقد القديم بمؤلفات قيمة، من أمثال :ألف ليلة وليلة والسير الشعبية والأحاجي والألغاز والملح والنوادر والأخبار..فضلا عن عدم الاكتراث بكثير من جيد الشعر، بحجة أن الرواة والمشتغلين على النقد ينبغي أن يدور حول بعض الشعراء الفحول دون غيرهم، ممن يمكن عدهم شعراء خصيانا .وقد مكن ذلك من هيمنة مقاييس نقدية ومعايير أخلاقية، كانت نتيجتها انحطاط الشعر والذوق معا.

يأتي النقد الثقافي ليعيد النظر،لا في النصوص الأدبية فحسب، بل في كل ما يتصل من الأفكار والأحكام والآراء التي أحاطت بالشعر .ومن ثم لا عجب، إن بدا شاعر كأبي الطيب المتنبي من خلال النقد الثقافي شحاذا كبيرا، ومنافقا خطيرا، بقدر ماهو شاعر فحل، وناظم خنذيذ . وأبو تمام والبحتري لا يقلان خطورة عن المتنبي في هذا الباب .

يتضح أن النقد الثقافي هو أقرب أنواع النقد إلى التفكيكية، من حيث إنه لا يعير اهتماما لما ألفه النقد من قبول أو رفض، وهو يسعى إلى إعادة النظر في الأشياء قلبا وقالبا ،فما كان ينظر إليه النقد الأدبي على أنه جيد، وأكثر نبلا وسموا،يتحول مع النقد الثقافي إلى شيء وقع عليه التدمير على قاعدة المغايرة والاختلاف.